الأساطير الدِّينيَّة و ظهور المعتقدات

مقدمة:

إنَّ النَّظرة الفاحصة إلى تاريخ وجغرافية دين الإنسانيَّة، تكشف لنا عن بُنية موحَّدةٌ للدين، أنى وأين التقينا به كظاهرة ثقافيَّة. تقوم هذه البنية على عدد من العناصر أو المكونات، بعضها أساسي لا نستطيع التَّعرف على الظَّاهرة الدِّينيَّة بدونه، وآخر ثانوي لا يؤدي دوراً حاسماً في تكوين الدِّين، أو تعرفنا على الظَّاهرة الدِّينيَّة (المعتقد). ومن المكونات الأساسيَّة لها "الأسطورة". فما مفهومها؟

أوَّلاً– مفهوم الأسطورة: للأسطورة تعريفات متعدِّدة، أهمها:

1)– التَّعريف اللغوي: ورد في كتاب "لسان العرب" في مادة سطر وقال الزَّجاج في قوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأوَّلين﴾ خبر لابتداء محذوف المعنى، وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين معناه سطَّره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة كما قالوا أحدوثة وأحاديث. وسطَّر يُسطِّر إذا كتب. قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾، أي وما تكتب الملائكة. والأساطير: الأباطيل. والأساطير: أحاديث لا نظام لها، واحدتها إسطار وإسطِارة بالكسر وأسطير و أسطِيرة و أسطُورة بالضَّم[1]. ووردت في القرآن الكريم جمعاً، ولم ترد مفردةً في أيِّ أية.

1– ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[2].

2– ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ﴾[3].

3– ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[4].

4– ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[5].

5– ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[6].

6– ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[7].

7– ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[8].

---

[1] – جمال الدِّين ابن منظور: **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، حرف السِّين، مادة: سطر، **مج.3، ج.23، (د ـ ط)**، دار المعارف، القاهرة، 1979م. ص.2007.

[2] – سورة الأنعام: الآية.25.

[3] – سورة الأنفال: الآية.31.

[4] – سورة النَّحل: الآية.24.

[5] – سورة المؤمنون: الآية.83. و سورة النَّمل: الآية.68. مع شيء من التَّقديم والتَّأخير في بُنية الآية الثَّانية.

[6] – سورة الفرقان: الآية.5.

[7] – سورة الأحقاف: الآية.17.

[8] – سورة القلم: الآية.15. وسورة المطففين: الآية.13.

2)– التَّعريف الاصطلاحي: الأسطورة Myth: لفظ يوناني، يعني قصة شعريَّة أو خرافيَّة يسودها الخيال، وتبرز قوى الطَّبيعة في صورة كائنات حيَّة ذات شخصيات ممتازة، يبنى عليها الأدب الشَّعبي[1]، ويمكننا إدراك أنَّ هذا التَّعريف يعتمد على الشَّكل والبُنية المعرفيَّة.

ويُعرفها كلٌّ من "المعجم الفلسفي"[2]، و "مُعجم المصطلحات الفلسفيَّة"[3]، على أنَّها قصة خياليَّة ذات أصل شعبي، تُمثَّلُ فيها قوى الطَّبيعة كأشخاص، يكون لأفعالهم ومغامراتهم معانٍ رمزيَّة؛ لأنَّ الأسطورة واقعٌ مُعاش، كان يعتقده الإنسان البدائي، وليس نتاج خيال. ويمكننا الحكم على هذين التَّعريفين بأنَّهما قد وصفا الشَّكل، وحاولا تأويل المضمون. ويقوم ذلك الحكم على مضمون الأسطورة بإضفاء الرَّمزيَّة عليها.

ويُعرِّفها "قاموس الفلسفة والدِّين" على أنَّها قصة تؤخذ على أنها حقيقيَّة، ولكنها ليست معروفة على أنَّها كذلك، فهي تروي أفعال الآلهة وقوة نفوذها بشكل مفصل، متضمنة أولى التَّفسيرات لمسألة أصل الكون، وترتبط بالمجاز والرَّمز[4]، ويكاد يتفق هذا التَّعريف مع ما ذهب إليه مراد وهبه في معجمه[5]، ويمكننا وصف هذين التَّعريفين بأنَّهما أقرب إلى الرُّؤية الاجتماعيَّة والأنثروبولوجيَّة للأسطورة في صورتها الدِّينيَّة.

وتُعرَّف الأسطورة كذلك بأنها قصَّة مُقدَّسةٌ، كما هو الحال في "قصَّة الخلق"، الواردة في "الكتاب المقدس"[6] في سفر التَّكوين (الإصحاح الأوَّل والثَّاني)، وقصَّة "جنَّة عدن"، و"قصَّة نوح" في الإصحاحين الثَّالث وكذا السَّادس بالتَّرتيب.

فكلُّ هذه القصص تُصنَّفُ كأساطير دينيَّة[7]. وهذا التَّعريف يُحاول مُصادرة الأسطورة لصالح الدِّين، إذْ يجعل النُّصوص النُّصوص المقدَّسة في الأصل الصَّحيح للبُنية المعرفيَّة للأسطورة، وأنَّها قد حُرِّفت بفعل الأزمان والثَّقافات.

وهذا التَّعريف يتفق مع ما ذهب إليه "توماس بلفنش – T .Bulfinch"(1796 – 1867م) حيث يرى أنَّ جميع القصص الأسطوريَّة مُستمدَّة من روايات الكتب المقدَّسة، لكن الوقائع الصَّحيحة تبدَّلت[8]. وهذا يتفق مع ما ذهب ذهب إليه "مرسيا إلياد – M. Eliade"(1907 – 1986م) حيث عرَّف الأسطورة بأنَّها قصَّة مُقدَّسة، حدثت في الزَّمان الأوَّل، وهو زمن البدايات، فالقصص الدِّينيَّة الخاصة بالشُّعوب القديمة لا تُعدُّ تاريخاً، بل أساطير حيث إنَّ

---

[1] – مجمع اللغة العربيَّة: **المعجم الفلسفي، ط.1**، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريَّة، القاهرة، 1983م، ص.13.

[2] – جميل صليبا: **المعجم الفلسفي، ج.1، ط.1**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م، ص.79.

[3] – عبده الحلو: **معجم المصطلحات الفلسفيَّة، ط.1**، مكتبة لبنان – ناشرون، بيروت، 1994، ص.110.

[4] - William L. Reese: «**Dictionary of Philosophy and Religion Humanities Press**», New Jersey, U. S. A, 1989, p.375.

[5] – مُراد وهبه: **المعجم الفلسفي، ط.3**، دار قباء للطباعة والنَّشر، القاهرة، 1998م، ص.61 – 62.

[6] – **الكتاب المقدَّس**: هو الاسم الذي يطلقه سواء المسيحيون أو اليهود على النُّصوص المقدَّسة المقبولة لكليهما معًا (أو قد تختلف في أجزاء منها). و يتفقوا أنَّها نصوص موحى بها من الله، ويتكون الكتاب المقدَّس من قسمين: العهد القديم وهو "التَّوراة" أسفار نبي الله "موسى" عليه السَّلام، والعهد الجديد وهو "الإنجيل" المتكوِّن من الأناجيل الأربعة، "انجيل متى"، "انجيل لوقا"، "انجيل مرقس"، "انجيل يوحنا". **ينظر**: جمعيَّة الكتاب المقدَّس: **الكتاب المقدَّس**، (**ط. خ**)، دار الكتاب المقدَّس في الشَّرق الأوسط، بيروت، 1996م، ص.8.

[7] - Robert A. Segal: «**Myth**, **A very Short Introduction**», Oxford University, Press, 2004, p.46.

[8] - توماس بلفنش: **عصر الأساطير**، تر: رشدي السَّيسي، مر: صقر خفاجة، **ط.1**، دار النَّهضة العربيَّة، القاهرة، 1966م، ص.41.

أفكارهم ليست أفعـالاً إنسانيَّة أو خُبرات؛ لأنَّها تدور حول نشأة الكون وأصل الآلهة[1]. وبهذا تصبح الأسطورة جزء من المعتقد

والدِّين قديماً.

ويبدو أنَّ السَّبب الأساسي في تعدُّد هذه التَّعريفات يعود إلى أنَّ هناك أشكالاً كثيرة من الأساطير تتسم بالتَّداخل، سواء من ناحية النَّظر إلى أصولها أو سماتها أو مضامينها أو أغراضها، ولعل أهمها: الأساطير الشَّعائريَّة، وأساطير نشأة الكون، والأساطير العقائديَّة، وأساطير العالم الغيبي، والأساطير الخاصة بأصل الإنسان، وأساطير الطَّبيعة، والأساطير الخاصة بالرُّوح والنَّفس[2].

ثانياً– المعتقد (الدِّين) وعلاقته بالأسطورة:

تعرَّض "ماكس موللر – M. Muller" (1823 – 1900م) – عالم اللغة الألماني ومؤسس المنهج المقارن في دراسة الأساطير – للعلاقة بين الدِّين والأسطورة. فربط بين دراسة الدِّين ودراسة اللغة عن طريق البحث في أصل كلٍّ منها[3]. فرأى أنَّ هناك مرحلتين في نشأة الدِّين:

الأولى: تكمن في التَّأمل والتَّعجب والدَّهشة، تلك الأمور التي دفعت الإنسان إلى التَّفكير في أنَّه مُحاط بقوى مستقلة عن إرادته.

والثَّانية: هي التَّعبير عن هذا التَّفكير عن طريق اللغة. وقد عبَّر الإنسان عن هذه الطَّبيعة وقواها في استخدامات لغوية كثيرة انفصلت عن هذه التَّعبيرات المباشرة بواسطة المجازات، ثمَّ أصبحت هذه المجازات قائمة بذاتها، فتحولت إلى الآلهة خصوصاً مع تطور اللغة[4]، مؤكداً أنَّ اللغة بما لها من تأثير في الفكر هي التي حوَّلت الدِّين من الصُّورة الميتافيزيقيَّة إلى صورة شخصيَّة حسيَّة[5].

وذهب "موللر" إلى أنَّ فكرة الله نفسها إنَّما هي نتيجة لعمليَّة لغويَّة لفظيَّة، وبالتَّالي فهي عمل أسطوري، ومن ثَمَّ فمن الخطأ التَّمييز بين الأفكار الدِّينيَّة؛ لأنَّها تبدوا لنا حقيقيَّة وصحيحة، وأنْ نرفض الأخرى لأنَّها تبدو لنا غير حقيقيَّة وفاسدة[6]. وقد عدَّ "موللر" الأساطير التي تتحدث عن عبادة الأسلاف أو الأبطال أو الآلهة بمنزلة مرض عقلي، وأنَّ العلاج الوحيد يكون بواسطة التَّطور العقلاني[7]. واتفقت وجهة نظر "موللر" – فيما بعد – مع "تيلور – E. B.

---

[1] – مرسيا إلياد: **مظاهر الأسطورة**، تر: نهاد خياطة، **ط.1**، دار كنعان للدِّراسات والنَّشر، دمشق، 1991م، ص.10.

[2] – علي حسن قاسم: «جدليَّة العلاقة بين الدِّين والأسطورة»، **حولية كلِّيَّة الآداب، مج.5، ج.1**، جامعة بني سويف، جمهوريَّة مصر العربيَّة، 2016م، ص.36.

[3] – Charles H. Long: «**Signification**, **Signs**, **Symbols And Image in the Interpretation of Religion**, **The Davies Group Publishers**», Frontress Press, New York, 1999, p.23.

[4] – خزعل الماجد: **بخور الآلهة. دراسة في الطِّب والسِّحر والأسطورة والدِّين، ط.1**، الأهليَّة للنشر والتَّوزيع، عمان، 1998م، ص.86.

[5] – علي سامي النَّشار: **نشأة الدِّين. النَّظريات التَّطوريَّة والمؤلهة، ط.1**، دار نشر الثَّقافة، الإسكندريَّة، 1949م، ص.75.

[6] – نفسه، ص.76.

[7] – Kieran. Egan: «**From Myth to History and back again**», www.Science Dorect.Com. http://Elsevier. Com/ Locate/TS.C.14 Hanuary, 2007, p.63.

Tylor" (1832 – 1917م) في أنَّ الأسطورة هي نتاج الفكر قبل المنطقي، وذهب إلى الاعتقاد أنَّ الموضوعات الأسطوريَّة تنتقل من ثقافة إلى أخرى ومن دين إلى آخر[1].

ثُمَّ أصبحت الأسطورة وعلاقتها بالدِّين موضع اهتمام من جانب علماء الأنثروبولوجيا، أمثال: "سبنسر – H. Spencer" (1820 – 1903م)، و "تايلور" وغيرهم من الباحثين في تاريخ الأديان، الذين حاولوا رد الأديان إلى أصولها الأولى. فإذا نظرنا إلى الأول نجد أنَّه قد رأى أنَّ المصدر الأوَّل والأساس لكلِّ الأديان هو عبادة الأسلاف، أو عبادة آلهة في صورة أشخاص، ثمَّ عبادة النَّباتات، والحيوانات، حتى انتهى الأمر إلى عبادة قوى الطَّبيعة في النِّهاية[2]. وُعرف هذا المذهب باسم "الأنيميزم – Animism" أو المذهب الحيوي. أمَّا الثَّاني: فقد ساوي بين المذهب الحيوي والدِّين، ورأى أنَّ الدِّين ما هو إلاَّ استجابة لمشكلات عقليَّة، وليست اجتماعيَّة أو نفسيَّة أو وجوديَّة[3]. وأمَّد أنَّ الأسطورة قد حظيت بالثِّقة والتَّأييد من جانب أفراد المجتمع البدائي، الذين كانوا يفسرونها على نحو حَرْفي[4].

وقد صنَّف "تايلو" الأسطورة تحت راية الدِّين. ففي رأيه لا توجد أسطورة بمعزل عن الدِّين، وصنَّف كلٌّ من الدِّين والعلم تحت راية الفلسفة، وقسَّم الفلسفة إلى فلسفة بدائيَّة وفلسفة معاصرة، فالفلسفة البدائيَّة مُطابقة للديانة البدائيَّة[5].

وتتجلَّى الأساطير الدِّينيَّة في مجموعة من الشَّعائر أو الطُّقوس الدِّينيَّة، التي تُلبي الاحتياجات العمليَّة للجماعة من ناحية، وتهدف إل القرب من المقدس من ناحية أخرى. وتتسم الطُّقوس بالأفعال الرَّمزيَّة، والمشاعر المتكرِّرة؛ من أجل الحصول على الرِّضا التَّام.

ثالثاً– الأسطورة أحد مقوِّمات الدِّين:

يُعدُّ المعتقد والطَّقس والأسطورة، من المقوِّمات الأساسيَّة للدين، والتي لا نستطيع التَّعرف على الظَّاهرة الدِّينيَّة في تبديها المجتمعي، بدون التَّعرف عليها مجتمعة ومتعاونة. إنَّ الحالة المثاليَّة هي الحالة التي لا يطغى فيها أحد هذه العناصر على العناصر الأخرى، ولكن واقع الأمور لا يضعنا إلاَّ فيما ندر أمام هذه الحالة المتوازنة، ومعظم الأديان يبدي تفوقاً لأحد هذه العناصر على الأخرى. ففي تعاليم "بوذا" الأصليَّة والتي استمرت فيما عُرف إلى اليوم ببوذيَّة ألـ"هينايانا" ومقابلها "بوذية المهايانا" لا نواجه إلاَّ معتقداً خلواً تماماً من الميتافيزيقيا، ومُصاغاً بطريقة مباشرة. وقد رفض "البوذا" في كلِّ مناسبة التَّحدث عن الماورائيات مُنبهاً إلى أنَّ همَّ الإنسان ينبغي أنْ يتركز على تحرير نفسه من عالم المظاهر والإنطفاء في "النيرفانا"[6] حالة السُّكون الأبدي، مع إشارته إلى طرق وسبل تحقيقها دون شرحها والتَّفصيل فيها. ونظراً لغياب القوى الماورائيَّة في المعتقد البوذي، فقد حلَّت المجاهدات الرُّوحيَّة محلَّ الطُّقوس وانعدمت الأساطير بشكلٍ كامل،

---

[1] – روبير بندكتي: **التُّراث الإنساني في التُّراث الكتابي، إشكاليَّة الأساطير الشَّرقيَّة القديمة في العهد القديم**، سلسلة دراسات في الكتاب المقدس.**13**، **ط.2**، دار المشرق، بيروت، 1990م، ص.90.

[2] – إرنست كاسيرر: **الدَّولة والأسطورة**، تر: أحمد محمود حمدي، **ط.1**، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص.40.

[3] – Robert. Segal: «The Myth Ritualist Theory of Religion», **Journal for the Scientific Study of Religion**, Vol. 19, N°.2, Black Well Publishing, New York, 1980, p.174.

[4] – Robert A. Segal: «**Myth**, **A very Short Introduction**», Op. Cit, p.53.

[5] – Ibid, p. 14 – 19.

[6] – **النيرفانا:** هي لفظ سنسكريتي يُطلقه البوذيون على الخير الأعلى الذي يقومون به، وهو "الإخماد" أو "الإطفاء"، والمقصود به إخماد الشَّهوات واللذات التي هي أصلُ كلُّ شرٍّ. **ينظر: الموسوعة العربية العالمية، ج.5، ط.2**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتَّوزيع، الرياض، 1999م، ص.231.

فيما عدا سيرة "بوذا" التي تحولت إلى أسطورة. أما أديان الشَّرق القديم فتقدم لنا مثالاً مُغايراً تماماً؛ فهناك تسود الأسطورة الدِّينيَّة وترتقي مراتب لم تبلغها في أيَّةِ ثقافة أخرى، خصوصاً في "سومر" و"بابل"، كما يرتفع شأن الطُّقوس ليغلب على الأسطورة في "مصر الفرعونيَّة". وفي الدِّيانات المدعوة بالدِّيانات السِّحريَّة يرتفع شأن الطُّقوس القائمة على معتقدات غامضة وتنعدم الأساطير، ومثال هذه عبادة "الفوندو" في "إفريقيا" و"هايتي".

إلى جانب هذه المكونات، التي تعتبر أساسيَّة عند علماء الأديان، فهناك مكونات ثانويَّة لا تؤدي دوراً أساسياً في تكوين الدِّين، وإنَّما تظهر كعوامل مساعدة، وضمن سياقات تاريخيَّة واجتماعيَّة معينة، وهي: الأخلاق والتَّشريع[1].

وفي الأخير نخلص إلى التَّالي:

- ✓ أنَّ العلماء لم يتفقوا على معنى مُحدَّد للأسطورة، أو مصدرها، أو مقاصدها، ومدى تَأثُّرها بالدِّين أو تَأثِيرها فيه.
- ✓ أنَّ كلَّ العلماء لم يستطيعوا فك الاشتباك بين الحكم على الأسطورة على أنَّها نسيج خيالي من صنع الإنسان أو أنَّها نصٌّ إلهي، قام الإنسان بتزييفه أو بتحريفه في فترات مُتباينة بمنأى عن التَّدوين، ثُمَّ أضيف على الدِّين في فترات أخرى، وعلى الرُّغم من اتفاقهم جميعاً على التَّسليم بوجود الأسطورة والنَّسق الدِّيني، فإنَّهم لم يقطعوا بالتَّوحيد بينهما أو النَّظر إليهما بِعَدِّهما سياقاً واحداً غير متناقض أو متعارض.
- ✓ في خضم كثرة التّعريفات والآراء يمكننا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أنَّ العلاقة بين الدِّين والأسطورة هي علاقة جدليَّة تمثل إحدى إشكاليات فلسفة الدِّين.

[1] - فراس السُّواح: **دين الإنسان (بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدَّافع الدِّيني)**، ط.**1**، منشورات دار علاء الدِّين، دمشق، 1994م، ص.69 – 70.